المصريون القدماء والتوحيد

بداية التوحيد

إن الأصل في عقائد البشرية من لدن آدم هو التوحيد ، وما الشرك إلا خروجًا عليه وهذا ثابت كما بينا في توراة اليهود ، وهو واضح لا ريب فيه في القرآن الكريم . فقد فطر الله تعالى بني آدم جميعًا على الإيمان به وتوحيده ، وعدم الإشراك به شيئا وأخذ عليهم العهد .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣]

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم ، من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن اللّه ربهم وإلههم ، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠]

وقال النَّبِيّ ﷺ " يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لَا تُشْرِكَ – أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ – فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ " [صحيح مسلم].

وتناقش بعض الصحابة في الغزوات حول أبناء المشركين وذريتهم أيقتلون كآبائهم المقاتلين ؟

فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: "ما بال أقوام يتناولون الذرية " ؟ فقال رجل: يا رسول اللّه أليسوا أبناء المشركين ، فقال: " إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها " [رواه أحمد والنسائي]

فالأصل في الإنسان – أي إنسان – هو الإيمان أما الكفر والشرك فطارئان عليه بسبب الموروثات المختلفة والعقائد الباطلة .

ولم يبدأ التوحيد بموسى كما زعم اليهود إنما بدأ بأبي البشر آدم عليه السلام ، كما ذكرت التوراة نفسها وأكد ذلك القرآن الكريم .

يقول تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧]

عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: الكلمات : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم . (1)

أبعد هذا الدعاء يوصف آدم وذريته بالشرك ؟! وإن كان آدم مشركًا – فرضًا – فهلا أخبرنا اليهود ما الآلهة التي أشرك بها آدم مع الله تعالى !

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٣٩

كيف يكون آدم مشركًا وهو مُصْطَفَى من الله تعالى وكثير من ذريته يقول تعالى :

﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣٣، ٣٤]

والقرآن الكريم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تقوى هابيل ابن آدم وصلاحه وخوفه من الله رب العالمين .

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

إن التوحيد الذي هو أساس الإسلام هو دين الله تعالى الذي ارتضى للبشرية ودعا كل أنبياء الله تعالى الناس إليه .

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٠- ١٣٢]

فمن المشرك إذن إبراهيم عليه السلام أم اليهود الذين يقولون بشركه ؟!

رأي علماء المصريات في عقيدة المصريين القدماء

جمهور علماء المصريات والمؤرخين يجمعون على أن أهم ما تميزت به الديانة المصرية القديمة هو تعدد الآلهة .

ودونك ما قاله ستة من جهابذة علماء المصريات في " معجم الحضارة المصرية القديمة " قالوا : " لاشك أن أبرز ظاهرة في خصائص الديانة المصرية القديمة هي كثرة الآلهة : عرف المصريون

مئات من الآلهة والربات جمعوها محليّاً في " تاسوعات " وأشاروا إلى " ملك الآلهة " وإلى " سيدة جميع الآلهة " . ولو ذرعنا (ذرع الطرق قطعه بسرعة كأنه يقيسه) في كل مركز من مراكز العبادة لوجدنا كائنات إلهية تتخذ صور الأبقار والتماسيح واللبؤات والعجول وأبي قردان والثيران والطيور الجارحة الصقور ، وكثيراً من المخلوقات الأخرى ، ويطلق عليها عادة أسماء شتى في مختلف المدن " (١)

هذا هو اللغز الذي دوَّخ علماء الحضارة والمؤرِّخين

وهؤلاء الذين يقرُّون بتعدد الآلهة المعبودة لدى المصريين القدماء يعترفون بأنه بمعرفة المصريين القدماء بالتوحيد الخالص فيقولون : " رغم أن هذه الآلهة تبعاً لبلادها كانت تختلف في الشكل والاسم وفي طريقة السلوك فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختلافات فكرة " الألوهية " المجردة التي لا تتكر ممثَّلة في شعار على هيئة لواء معلق في طرفه ساق خشبية تغرس عند مداخل المعابد البدائية .

وكلمة " نثر " أو " الألوهية " هي الاسم الذي كان يصف أي واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ؛ كما استعملت لتصف كل سمة ربانيَّة. ومن الطبيعي أن تستعمل هذه الكلمة لتصف كل إله على حدة دون تكرار اسمه ، وسرعان ما أدى هذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوَّة إلهية مستقلَّة اشترك فيها كل إله .

كان الاعتقاد في " قوة إلهية " غير شخصية ولا نهائية موجودة في كل إله على حدة (ولكنها عامة ومنتشرة في حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة) عنصراً أساسيا في الفكر الديني المصري .

---

(١)جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٥١ ، ٥٢ .

لهذا يمكن أن نقول إن التوحيد المصري موجود دائماً مع تعدد الآلهة الواضح في العبادات المادية .

كثيراً ما يُذْكر الإله في أدب الحكمة دون أي صفات : " ليست إرادة الإنسان هي التي تحقق بل تدبير الإله (بتاح حوتب) الدولة القديمة .

" يَعْرف الإله من يعمل من أجله " (مير يكارع) الأسرة الحادية عشرة.

" كل من يفعل هكذا سيمجد الإله اسمه " (الحكيم آني) الأسرة الثامنة عشرة .

" الإنسان طين وقش وصانعه هو الإله " (أمينيموبي) نهاية الدولة الحديثة .

" سعيد من يسير في طريق الرب " (بيتوسيريس) القرن الرابع قبل الميلاد .

توجد أساليب التعبير هذه القاصرة على أدب الحكمة في الكتابات الخاصة .

" أدخلت السرور على قلب الإله لأني فعلت ما يحب ، إذ تذكرت أنه يجب عليَّ أن أذهب إلى الإله يوم مماتي " الدولة الوسطى .

إذن لا سبيل لإنكار أن مصر قد عرفت في مختلف عصورها عقائد تدعو لعبادة آلهة متعددة نشأت عن الديانات المحليَّة المختلفة التي احتفظت في حالة التوحيد بالاختلافات الأصلية التي كانت في عبادات ما قبل التاريخ مع وجود اعتقاد عام لا يتناقض إطلاقاً مع عمومية ووحدة كائن إلهي لا اسم له ولا شكل ولكنه يضم كل شيء . (١)

كيف يستقيم أن يعبد المصريون القدماء آلهة متعددة في نفس الوقت الذي يعترفون فيه بوجود إله واحد أحد لا اسم له ولا شكل ؟!!

---

(١) نفسه ص ٥٣ ، ٥٤.

الأدلة على توحيد المصريين القدماء

والحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن المصريين موحِّدون ، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد – الذي نؤمن به – وبكل التشريعات الإلهية التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك .

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة المصرية وأسسها وفلسفتها نجد عباس محمود العقاد يؤكد في دراسته لمفهوم الألوهية . في هذه الديانة أنه في هذه العهود السحيقة " وصل المصريون إلى التوحيد " وهو برأيه هذا ليس فريداً فيبدو أنه بذلك يسير على نفس درب بعض ذوي التخصص في الدراسات المصرية القديمة لأن " برستد " قد سبقه وأشار إلى نفس المعنى حيث بيَّن " .. وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم " ، وذهب معه " رودلف أنتس " إذ أكد أنه قد " .. عُرفت فكرة وجود الإله الأزلي منذ أوَّل بدء التاريخ المصري " وقد دعَّم هذا الرأي وعلا به أكثر أحمد بدوي بتأكيده : إن المصريين قد " .. عرفوا أن الله واحد لا شريك له " بل إنهم " قد نزَّهوا الخالق عن طبيعة الأشياء" (١)

وليس فقط هؤلاء من أكدُّوا توحيد المصريين القدماء فهناك العديد من العلماء والباحثين الذين أكدوا هذه الحقيقة منهم العالم الفرنسي شمبليون مكتشف ومترجم نصوص حجر رشيد حيث يقول : " لقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحَّة ما رواه "جامبليك "وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمة المصرية كانت أمة موحِّدة في عبادتها لله ، وأنهم لمَّا توغَّلوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبديَّة واعتقدوا بصحَّة الحساب والعقاب " .

(١) د. سيد القمني " عقيدة الخلود في مصر القديمة " المركز المصري لبحوث الحضارة ص ٩١

وفي عام ١٨٣٩ بعد وفات " شمبليون " نشر أخوه " فيجاك " نقلاً عنه خلاصة ما كان قد توصَّل إليه بعد طول بحث ودراسة : "إن الديانة المصرية توحيد خالص"

ويذكر العالم البريطاني " والس بدج " : { إن أكثر المؤيِّدين لنظرية التوحيد في مصر القديمة هو " د. بروجش " الذي جمع عدداً هائلاً مدهشاً من الفقرات المصريَّة الأصليَّة ، ومن هذه الفقرات نختار ما يأتي:

" الإله واحد لا ثانيَ له "

" الإله باطن خفي" (الذي لا تدركه الأبصار)

" وهو خالق يعرف تكوينه ولا أحد يمكنه أن يدرك كنهته وماهيته ،ولا شبيه له"

" هو خالق الكون وكل ما فيه ، خالق السموات والأرض والأعماق (ما تحت الثرى) والمياه والجبال .. إلخ "

وهذا القول قال به العالم الفرنسي " دي روجيه " ، وعالم الآثار " دي لاروج " ، وعلماء الأثار : " ماريت " ، و" بيريت " و " ماسبيرو " .

لقد نشر " والس بدج " كتاباً فيه تلخيص لخلاصة ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم جاء فيه " ومن الصفات المنسوبة إلى الله " God " في النصوص المصريَّة من كل العصور انتهي بروجش ، ودي روجيه، وعلماء المصريَّات الكبار الآخرون إلى فكرة أن سكَّان وادي النيل من أبكر وأقدم العصور عرفوا وعبدوا إلهاً واحداً .. أزليّاً .. أبديّاً .. لا تدركه العقول .. ولا يمكن استكناه ماهيَّته " .

ونشر والس بدج كتاباً آخر أكد فيه ما سبق أن ذكره من تماثل توحيد قدماء المصريين وتوحيد اليهود والمسلمين يقول فيه : " إنه لا توجد صعوبة في إظهار أن فكرة التوحيد التي وُجدت في مصر منذ العصور

المبكرة لا تختلف في ملامحها عن تلك التي نمت بين العبرانيين (اليهود) والعرب (المسلمين) " (١)

لم يكن التوحيد قاصرًا على المصريين القدماء فقط ، فقد عرفت شعوب أخرى التوحيد قبل بني إسرائيل . ففي نشيد الخلْق البابلي تقول الآلهة عن مردوخ: "إذا كان الناس قد تقسَّموا بين الآلهة، فإنه إلهنا، مهما اختلفت تَسْمِيَاتُنا التي أطلقناها عليه".

ولقد كان " شمس " إله الشمس، ولكنه في الوقت نفسه الإله الأعلى الذي يُملِي على الملك حمورابي، (١٧٩٢. ١٧٥٠) ق . م ، "شريعة العدل"، التي لا تختَلِف في شيء عن "شريعة العهد" التي أملاها يهوه على موسى بعد خمسمائة عام .

ومع ذلك فإن شهادة أولبرايت، المعروف بتعاطفه مع تقاليد بني إسرائيل . ذات مغزى، حيث يقول: "إن كتاب العهد(الخروج ٢١. ٢٣) هو ناموس شرعي ذو أجزاء من نَمَط شريعة حمورابي.

وإذا كانت القوانين الحثية "في القرن الرابع عشر ق.م"، والقوانين الأشورية "في القرن الثاني عشر ق.م" تَستَمِدُّ صياغاتها من الأحكام القضائية السومرية في الألف الثالث قبل الميلاد، فإن كتاب العهد ليس سوى الشكل المُنَقَّح بمجموعة من القوانين أكثر قدمًا، وهي تتفاوت في تعميمها، للتعبير عن الظروف المحلية التي كانت سائدة في كنعان، والتي قد تكُون انتقلت إلى أيدي الإسرائيليين خلال عصر القُضاة. (٢)

***

(١) لمزيد من أقوال علماء المصريات حول توحيد القدماء المصريين راجع د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " الفصل الثاني " إشراق الحقيقة " .

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . مرجع سابق .